مع تأمّلات بيجوفيتش فى الهجرة النبوية

(1)

إعتدت عندما أشرع فى كتابة مقال جديد أن أستحضر أمامى المصادر المتصلة بموضوعه، حتى لا يكون الإعتماد على الذاكرة وحدها فتشرد منى بعض تفاصيل أو حقائق هامة .. وبينما كنت أبحث هذه المرة عن مقالات قديمة كتبها على عزت بيجوفيتش فى السبعينات من القرن العشرين، عثرت يدى بجوارها على كتاب إنجليزى من الكتب المدرسية التى تشرح الإسلام لتلامذة المدارس البريطانية بعنوان (ظهور الإسلام) .. فتحته لأتصفّحه فوجدت ما أثار دهشتى .. ففى أول صفحة يتحدث المؤلف عن الهجرة النبوية .. تحت عنوان كبير (الحروب المقدسة فى الإسلام) .. فماذا يقول عن الهجرة ..؟ إنه يقول بالنص: "فى منتصف ليلة صيف من سنة 622 ميلادية إقتحم الجنود منزل محمد تنفيذا لأمر حكومة مكة باعتباره عدوّا للشعب ولخطورته على أمن المدينة ، التى هى المركز التجارى لقريش بين العرب .. إنتزع الجنود أهل محمد وخدمه من فراشهم .. وأخذوا يتصفحون وجوههم على ضوء مشاعلهم .. يبحثون فى الوجوه عن ذلك الرجل الذى يدّعى أنه رسول الله .. والذى تآمر سرّا مع أعداء قريش من أبناء مدينة يثرب المنافسين التجاريين لقريش .. وفى أثناء الهرج والمرج تسلّل محمد متسترا تحت جُنح الظلام .. مصحوبا بتا بعه ورفيقه فى التجارة أبو بكر .. هرب الإثنان إلى تلال الصحراء ليختبئا فى أحد الكهوف بعيدا عن الأعين المتطفّلة .. وفى الصباح أعلنت قريش جائزة مائة ناقه لمن يأتى برأس محمد .. فخرج كثير من جيرانه يبحثون عنه طمعا فى الحصول على الجائزة ... وبعد أيام إقترب محمد من يثرب (إسمها الآن المدينة) وخرج أهلها يستقبلونه ..فهم لا يعتبرونه خائنا كما اعتبرته قريش وإنما رسول من عند الله .. دخل محمد المدينة فى حراسة سبعين جنديّا تحت أقواس النصر .. وقد أطلق أتباع محمد على الفرار من مكة إلى المدينة إسم الهجرة .. ولأهمية هذا اليوم أصبح بداية تاريخهم ..." يتابع مؤلف الكتاب حديثه عن حياة محمد القلقة غير المستقرّة فى المدينة فقد أنفق السنوات العشرة التالية فى حروب دموية مع قريش .. والسبب أن كتابه المقدس (القرآن) الذى يعتقد المسلمون من أتباعه أنه كلمات الله يحث فيها محمد على ألا يأخذ أسرى من أعدائه إلا بعد أن (يُثْخِنَ فى الأرض) ويجعل منها مجازر تفيض منها الدماء .. وتطبيقا لهذه الفلسفة القرءانية وقف محمد من يهود بنى قريظة عندما استسلوا له نفس الموقف (الذبح والسبْي) .. وقد سار أتباعه على سنته فى الحروب المقدسة (التى أسموها الجهاد) وهى حروب بشعة شنها المسلمون على الإمبراطوريتين البيزانطية والفارسية فى سوريا ومصر والعراق وغيرها من المدن شرقا وغربا....

وهكذا يمضى مؤلف الكتاب يفترى على التاريخ الإسلامى دون سند إلى وثيقة ولا دراسة .. ويطلق كلاما كاذبا متناقضا بدون أى جهد حتى لتمحيص ما يقول .. مثلا: الخليفة الرابع علي بن أبى طالب (هو إبن أبى بكر) وليس إبن أبى طالب ومع ذلك فهو (لايزال) إبن عم محمد .. يزعم المؤلف أنه تولى الخلافة بدعم من قتلة عثمان الخليفة الثالث .. ومن ثم أصبح موضع شكّ فى نظر كثير من المسلمين ولذلك حملوا السلاح ضده .. وقامت عائشة زوجة

محمد على رأس جيش من أتباعها لقتال عليّ .. [لاحظ التناقض هنا: لأن عائشة تكون وفقا لكلام المؤلف هى أخته باعتبارها بنت أبى بكر أيضا ..!]

وهكذا يمضى الكتاب يبث الأكاذيب والمفتريات عن الإسلام والمسلمين .. ويصور تاريخ الإسلام كله من أوله إلى آخره كسلسلة من المجازر الدموية البشعة فى منطقة الشرق الأوسط أكثر مناطق الدنيا إضطرّبا وتخلّفا وهمجية .. حتى يجئ مصطفى كمال أتاتورك فيحاول أن يضع حدّا لكل هذا الإضطراب والهمجية ليقترب من النموذج الغربيّ المتحضر فيلغى الإسلام والقرآن واللغة العربية ويحرّم الأذان فى المساجد ويلبس القبّعة على رأسه .. ويتعاطى الخمر مع ندمائه وخلآنه ومستشاريه من الفرنسيين والإنجليز ...!! هذا إذن كتاب مدرسي يعلّم التلاميذ فى الغرب ما يجب أن يعرفوه عن الإسلام والمسلمين حتى يتعاملوا معه ومع أتباعه فى مستقبل حياتهم .. يستوى فى هذا الجندي الذى سيحاربهم فى العراق وأفغانستان، والمثقف الذى سيعرض حياتهم ومواقفهم وأخبارهم فى الصحف والكتب والإعلام ، والسياسي الذى سيتعامل معهم فى المجال الدولي مثل بوش وتونى بلير وساركوزي وأنجلا ميركل وبرلسكونى، وفى المجال الديني بابا الفاتيكان، وغيرهم ممن سمعنا عنهم ومن لم نسمع .. كلّهم أبناء ثقافة نمطية واحدة من صناعة المدرسة والمكتبات العامة والإعلام المسموع والمرئيّ الذى يقوم بمهمة بالغة القداسة فى غسل عقول البشر ووضعهم فى قوالب فكرية وعاطفية معبّأة بالكراهية والاشمئزاز والاحتقار للإسلام والمسلمين .. جاهزة للإنقضاض على المسلمين عند اول نداء .. ولا تنخدع ببعض التصريحات الدبلماسية والاعتذارات الواهية التى تصدر من سياسيّيهم من وقت لآخر .. فهذه بعض أدوات مكيافيلية لتيسير الأمور [يعنى عُدّة الشغل لزوم الاستعباط السياسي] ...

وأحب أن أنبه هنا إلى أن بعض الأكاديميين المسلمين فى الغرب لهم دراسات مسحية واسعة لجميع الكتب المدرسية التى تقدّم الإسلام والمسلمين إلى التلاميذ فى كل البلاد الأوربية، هى من نفس النوع الذى تجده فى المنظومة البريطانية الشهيرة [لمارشال كافنديش للتعليم] .. وستكشف من هذه الدراسة نماذج صارخة للكذب والافتراءات على الحضارة الإسلامية وتحريف التاريخ الإسلامي ، والمفاهيم الإسلامية ...

وهذ الكتاب الذى عرضته هو احد أهم الكتب التى تصدر فى بريطانيا ضمن هذه المنظومة من الكتب المدرسية التى يشرف عليها لفيف من أبرز الأساتذة والمؤرخين والفلاسفة بجامعات لندن وأكسفورد وكامبريدج أمثال : برنار وليامز وألان بولوك و دبليو جوردون إيست .. ولكن ماذا تقول للتعصب الأعمى والجهل .. والإستماتة فى تشويه تاريخ الإسلام وتشويه صورة نبيه .. وتقديم هذه الأكاذيب المركبة لأبنائهم فى المدارس .. وبعد كل هذا يأ تون إلينا وأيديهم وعقولهم ملوّثة بالعفن .. يأتون إلينا بإملاءاتهم ونصائح خبرائهم لتصحيح كتبنا (نحن) الدراسية لاستبعاد آيات من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة منها .. ويذعن لهم سفهاؤنا المسئولون عن التعليم فى بلاد المسلمين حتى لا يُتهموا بالترويج للإرهاب .. فمن منا أوجب عليه أن يقوم بتغيير كتبه المدرسية المليئة بالأكاذيب والتحريض على الكراهية الدينية والعدوان على الآخرين نحن أم هم ..!!؟ هؤلاء الخبراء الأجانب هم ومن أرسلهم هم الذين إخترعوا الإرهاب فى كتاباتهم وهم الذين مارسوه علينا فى بلادنا ويمارسونه حتى هذه اللحظة .. فهل يستيقظ الغافلون والمغفّلون من غفلتهم ... !!؟

(2)

أرجو أن أطوى هذه الصفحة التى انسقت إليها كارها لها فأبعدتنى كثيرا عن مركز إهتمامى الأصلى .. فليساعدنا ربُّنا جلّ شأنه على نسيان هذه الصفحة الملوثة من سفاهات القوم لنبدأ صفحة جديدة مشرقة من صفحات الإيمان مع على عزت بيجوفيتش فى مقال سطّّره وكتب تحته بقلمه: إنتهيت من كتابة هذا المقال فى شهر مارس1978 م والمقال بعنوان " تأمّلات فى الهجرة النبوية " يقول فيها:

الحقائق التاريخية التى عادة ما نسميها بالهجرة معروفة لجميع المسلمين وخلاصتها أن جماعة صغيرة من المسلمين بقيادة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم إضطرّوا إلى ترك ديارهم فى مكة المكرمة وهاجروا إلى المدينة المنورة ، كما تركوا وراءهم كل ما كانوا يملكون ولم يحملوا معهم سوى إيمانها بالله وحده .. وقع ذلك فى السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية أى فى شهر سبتمبر 622م ...

هذه الواقعة التى كانت ومازالت مصدر إلهام لخيال وقرائح البشرية تم تدوينها فى روايات مفصّلة تحتوى على كثير من الأحداث المثيرة والحزينة .. ولا شك أن قصة الغار كانت أكثر هذه الأحداث إثارة .. وقد تبقّى فى الخيال الشعبيّ إلى اليوم بعض قصصٍ مشتهرة تداولتها كتب التراث عن الغار الذى أوى إليه النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر.. مثل قصة العنكبوت الذى نسج بيته ، وقصة الحمامة التى وضعت عشها وبيضها على باب الغار تضليلا للكفار الذين خرجوا يبحثون عن النبي للفتك به .. ولكن ما حدث فى الغار كان أعجب وأقوى فى ذاكرة الأيام .. ففى تلك اللحظات المصيرية الفارقة بين الموت وانتهاء الرسالة وبين الحياة وإستمرارها قال النبى (صلى الله عليه وسلم) عبارته الشهيرة لرفيقه وصاحبه أبى بكر ليهدّئ من روعه .. وهى العبارة الخالدة التى سجلها القرآن العظيم فى آية يتعبّد بها المسلمون {...لا تحزن إن الله معنا } [التوبة: 40] ...

إننا نحتار اليوم فى إختيار أيّ معنًى من معانى الهجرة النبوية مما يجب أن نبرز بصورة خاصة عندما نتأمل هذه الواقعة وآثارها العظيمة، فى تاريخ الدعوة الإسلامية ..!؟ ،أي معنًى من معانى هذه الهجرة الفارقة يجب أن نستدعى إلى ذاكرتنا، ونحن نتأمل فى أحداثها حادثة حادثة من هذه المسافات الزمنية الشاسعة بيننا وبينها...!؟.. بينما نقترب فى الزمن من نهاية القرن الهجرى الرابع عشر و نستعد لاستقبال القرن الخامس عشر ...؟؟ فنتساءل: فى أى واقعة من وقائع الهجرة تكمن الأهمية الكبرى ...؟ هنا تتفرع بنا احتمالات كثيرة حيث يمكننا الحديث على سبيل المثال عما كانت تعنيه الهجرة النبوية لتقدم الفكر الإسلامى باعتباره منهج حياة ..والإحتمالات كثيرة يصعب حصرها .. وفى كل منها سنتيقّن من جديد أن الهجرة كانت نقطة فاصلة فى التاريخ الإسلامى كله .. ولكن ينبغى أن نتذكردائما أن أهم لحظة على مدى ثلاثة وعشرين سنة من بدء نزول الوحي بالقرآن الكريم كانت هى اللحظة التى أذن الله فيها

بالهجرة النبوية فهى تعنى لتاريخ الإسلام ما يعنيه شروق الشمس على الكون الفسيح كله ، فعلى الرغم من أن فجر الإسلام كان قد أسفر فى مكّة مع نزل الوحى الأول، لم تشرق الشمس بكل ضيائها إلا فى المدينة . فمع الهجرة تحول الإسلام من حركة روحية محضة إلى جماعة إسلامية .. لتتحول منها إلى بدايات لتشكيل المجتمع والنظام والدولة .. لذلك إذا أردتم الوقوف وجها لوجه مع أسرار الإيمان بالله .. وأن تغوصوا فى البحر اللّجى للإيمان ، فعليكم بقراءة بعض السور القرآنية المنزّلة فى مكة المكرمة . ولكن إذا أردتم معرفة الإسلام باعتباره مجموعة القوانين أو نظام الدولة فلا يمكنكم الوصول إلى ما تريدون إلا إذا بدأتم تتأملون بإمعان فى السور المدنية ، أما واقعة الهجرة النبوية فى حد ذاتها فهى حلقة الوصل بين مرحلتي مكة والمدينة . وهى معلم فى هذه الطريق وجبل مشرف ترون منه المرحلة التى قبله والمرحلة التى بعده .. هاتان المرحلتان المتميّزتان يكوّنان معًا ما نسميه بالإسلام . لذلك تظل واقعة الهجرة هى المرحلة الحقيقية الأولى لعصر جديد .. عصر الإسلام المكتمل المتكامل ...

هذه بعض أهم التأملات الواقعية فى الهجرة النبوية .. ولكن يمكن أن نلاحظ هنا شيئا أخر على نفس الدرجة من الحقيقة والواقعية لنتخذ منه العبرة فى حياتنا الراهنة .. نعم لقد هاجر المسلمون من مكة ولكنهم عادوا إليها ...!! عادوا إليها بعد ثمانيةِ سنوات فقط .. ولكن أي عودة ..!؟ لقد عادوا فاتحين منتصرين .. عادوا ليحوّلوا قبلة الشرك والخرافة إلى القبلة العالمية لدين الله الحق .. فعندما خرجوا من مكّة أول مرة تحت ضغوط المشركين كانوا أقوياء روحيا ولكن ضعفاء ماديا .. فلما عادوا إلى مكة كانوا أقوياء روحيا وماديا معًا ..

هنا إذن وبهذا المعنى تبدو رسالة الهجرة واضحة جليّة : لقد هاجر المسلمون لا فرارًا من الموت كما تهرب الفرائس مذعورة من الصيادين .. ولكنهم واهاجر ليستعدوا للعودة .. هذه هى الهجرة الحقيقية ...!! و كلّما أمعنّا النظر فى الهجرة النبوية استأثر بمجامع عقولنا الجانب الجُوّاني ..الجانب الأنسانى للهجرة، لا الجانب الخارجى البرّانيّ . وذلك لأن المعالم التاريخية لهذا الجانب الإنسانى تبدأ تضعف فى ذاكرتنا وتتلاشى مع مرور الزمن .. وبدأنا نبذل جهودا مضنية لنميز بين وجوه أولئك الأصحاب الذين شاركوا فى هذه الرحلة الشهيرة .

يقول على عزت بيجوفيتش: " إن أسمى وأعظم حقيقة فى هذه الهجرة هى هؤلاء الرجال و إخلاصهم لله وتضحيتهم من أجل الاسلام ...! ولا يسع الانسان إلا أن يتحسّر على كونه لا يملك حس شاعر مرهف ليرطّب هذا الوصف الجاف بقصيدة معبّرة حافلة بمشاعر القلب والوجدان عن جيل الشجعان الذين عاشوا للإسلام .ولكن حتى من غير هذه المَلَكة الشاعرية تتوارد الاسئلة من تلقاء نفسها : من كان هؤلاء الرجال الذين تركوا ديارهم لمجرد أن دعاهم النبى – صلى الله علية وسلم- الى ذلك ..!؟ وراحوا يبحثون عن ديار جديدة للإسلام قبل أن يبحثوا عنها لأنفسهم ..!؟ ماذا كانت حقيقة أولئك الرجال ...!؟ لماذا يختلفون عنا كل هذا الاختلاف ...!؟ وخاصة هذا السؤال: من نكون نحن عند مقارنة أنفسنا بهم ...!؟

قد نجيب عن أكثر هذه الأسئلة علي مضض ، وعلى الأخص عن السؤال الأخير ، لأن الأجوبة ستكشف أمام وعينا عن هزيمة شخصية مطلقة لنا .. فإذا كانوا هم المسلمون

الحقيقيون ، فهل نحن اليوم مسلمون حقاً ..!!؟؟ وهل من حقّنا الإدعاء بأننا ننتمي إلي شجرة هذه الدوحة الإسلامية الرائعة العظيمة ..!!؟؟

لقد كانوا مثلنا: نطقوا بشهادة الإسلام : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله !! و لكن بينما نحن نردد الشهادة مجرد ترديد باللسان كانوا هم يعتقدون فيها ويوقنون بها يقينا لا شبهة فيه .. لقد أكدوا انتماءهم لهذه الشهادة في حياتهم بتضحياتهم الرائعة .. وبهجرتهم من أرضهم وبكل ما ترتّب على تلك الهجرة من مشقّات وتضحيات .. أما نحن فعلي نقيض ذلك ، نؤكد كل يوم (بتخاذلنا وسلبيتنا وسعينا وراء النجاح المادّي، وراء المنصب والمال والسمعة) نؤكد بأننا لا نصدّق إلا بما نراهّ بأعيننا وتلمسه أيدينا .. لقد ضحوا هم بحياتهم من أجل الإسلام ونصرته ورفع شأنه ، وعاشوا حياتهم كلها للإسلام ، بينما نحن نموت من الخوف و من السكتة القلبية، و من حوادث المرور، ومن السمنة والترهل والأزمات العصبية ، ونعيش من اليوم للغد ..! وبعبارة موجزة ، كان الصحابة لا يخشون إلا الله ، وأما نحن فلا نخشي إلا الناس ..!!؟؟ وهكذا ترى الفرق بيننا وبينهم شاسع مذهل .. كالفرق بين السماء والأرض ، والنتائج المترتبة على هذين الموقفين كذلك شاسعة ومذهلة ...!! ".

عندما نتأمل ابتلاء ومحن الجيل المسلم الأول ، و كانت الهجرة واحدة من تلك المحن ، قد يتساءل كثير منا : ما السر في ابتلاء الله لهذه العصبة من المؤمنين مع رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ... ؟؟ وقد تحملوا قبلها صنوفاً من الأذى والبلاء .. خُتمت بثلاث سنوات كاملة من الحصار والمقاطعة والجوع ، ثم أُجبروا أخيراً علي ترك ديارهم ومدينتهم ..؟ إن الله ، عز وجل ، وهو العزيز القادر ، يستطيع بكلمة واحدة أن يهلك المشركين و يدمّرقوتهم ، أو يرسل عليهم المرض أو يقذف في قلوبهم الرعب والوهن إن شاء أو يزيل ، بطريقة أو بأخري، جميع العوائق عن طريق هذه العصبة المؤمنة التي كانت تسبّح باسمه ، جل شأنه بكل هذا الحب العظيم ، ليكون طريق رسالتهم سهلاً مُيسّرًا ..!؟ ولكن الله لم يشأ أن يقضي بذلك ، بل ابتلي هذه الجماعة الصغيرة بكل هذه المحن القاسية التي سمعنا عنها كثيراً .. لماذا ..!؟

يجيب على عزت بيجوفيتش قائلا: " يبدو أنّنا لا نملك إلا تفسيراً واحداً وهو : أن الله ، وهو رحيم قادر ، أراد التمييز بين الصادقين وغيرهم ، بين المخلصين والمنافقين ، بين الثابتين والمتذبذبين .. وذلك لأن الوضع العالمي العام كان يتطلب تطهير العالم وتغييره وتنظيمه علي أسس جديدة . لقد وصلت الإنسانية وحضارتها فى ذلك الوقت إلي أقصي نقطة من الانحراف والتّردّى ، وكان لابد من مرور المحراث الحديدي ليطهّر كل هذا العفن و يزيل المستنقعات وينظّف التربة لتنبت بذرة حضارة جديدة في أرض صالحة ...

فمن كان يقدر علي حمل عبْء هذه الرسالة ..؟ لم يكن ذلك في مقدور أي جيل عادي ، بل كان لابد من جيل يستحق شرف هذه الرسالة .. وقد اختار الله في مكة لذلك الشرف جيل الهجرة دون سواهم .. إنهم أكدوا استحقاق ذلك الشرف التاريخي الفريد لإخلاصهم لدينهم واستعداد هم للتضحية .

لا يتسع المجال هنا لذكر كل التحولات العظيمة التي حدثت بعد ذلك علي مسرح التاريخ في العالم وقتئذ : فقد انهارت إلى الأبد أكبر دولتين عُظمتين فى العالم ، ونشأت مدن جديدة ، واجتاحت العالم نهضة أخلاقية هائلة ، واكتشف الإنسان مجالات جديدة في عالم العلم

والمعرفة، بإيجاز شديد نشأت حضارة جديدة .. وأشرقت على الدنيا شمس جديدة .. حضارة الإسلام وشمس الإسلام ...

يقول على عزت بيجوفيتش: " لعلنا هنا نستطيع أن نؤكد بأن بذرة هذه الحضارة الجديدة كانت هى العصبة القليلة من المسلمين ، التي هاجرت سنة 622 إلي المدينة ، وأنه لم تكن في العالم كله آنذاك جماعة تتساوي معها أوترقى إلي مستواها .. لقد كانت تحمل في قلوبها الإيمان الخالص بالله ، وكانت كل قوتها متمركزة في هذا الايمان ، و في هذا الايمان وحده ... !!

ويتابع بيجوفيتش متسائلا: " هل علينا أن نطرح من جديد ذلك السؤال التقليدي : ما العبر والدروس المستفادة من الهجرة النبوية ...؟ ثم يجيب: " علي الرغم من كل ما ذكرناه آنفًا فسوف أقدم إجابتى: وهى إجابة تتردد بين الحقيقة والتساؤل ذلك لأننا إذا أخذنا بلُبّ هذه الواقعة أقصد واقعة الهجرة ، فلابد أن يتحول هذا السؤال إلي أمر واقعي اليوم مثلما كان بالأمس : هل سأجاهد من أجل الإسلام ، أو سأكتفي بالتفكير في أموري الشخصية فقط ...!؟ لقد حسم المسلمون الأوائل موقفهم بكل حزم ووضوح وتصرفوا على هذا الأساس .. أما بالنسبة لنا اليوم فإن السؤال يطرح نفسه من جديد ربما بلغة عصرنا: هل سأعمل للخير العام ولمستقبل الإسلام ، أو ساعمل فقط لمنفعتي الخاصة ..!؟ هل سأعمل لخير أبنائى أنا فقط أم سأعمل لمستقبل أطفال العالم بأسره فى هذا المناخ المتعفّن الملوّث بثقافات منحطة .. المتعطّش فى نفس الوقت لثقافة الإسلام وروحه العالية المتسامية ...؟ هذا هو السؤال ...! إننا فى هذا العصر نقف جميعاً كل يوم أمام تساؤلات كثيرة عن معنى الهجرة و دروس الهجرة .. ويبقي السؤال الأساسي هو هو فى الماضى وفى الحاضر على السواء ، ولكن الاجابات تختلف فيما بيننا كأفراد ومجتمعات .. وعلى كل واحد منا أن يجيب على هذا السؤال .. أن يجيب أمام نفسه و أمام الله : هل أنا مسلم حقاً .. !؟ "

" لقد عرفنا إجابات صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال ، إلا أنهم لن يجيبوا اليوم بدلاً منا ، بل يجب علينا نحن أن نجيب بأنفسنا .. إنهم لم يجيبوا لأنفسهم بكلام نظري فقط ولكنهم قدّموا للدنيا كلها إجابة عملية وضربوا أروع مثال على ذللك .. وكان هذا المثال هو الهجرة إلى المدينة وماترتب عليها من تضحيات ...!!

محمد يوسف عدس (مستشار سابق بمنظمة اليونسكو)